الخطـــاب

دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب

منشورات مخبر تحليل الخطاب

جامعة مولود معمري – تيزي وزو–



للاتصال: مخبر تحليل الخطاب

جامعة مولود معمري – تيزي وزو–

Tél fax: 026 21 32 91

Email:elxitaab.lad@gmail.com

الإيداع القانوني: 1664 – 2006

ISSN : 11-12 7082

العدد 14

عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي حول

واقع البحوث المعرفية وتحليل الخطاب (أيام : 11 - 12- 13 مارس 2013)

إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقًا على خطب حادثة السقيفة

د/عماد عبد اللطيف

جامعة القاهرة

يسعى هذا البحث إلى تقديم إطار شامل لتحليل الخطاب التراثي. ولأن هذا البحث يدخل في دائرة المداخل المنهجية، فسوف أحرص على أن يتضمن خريطة واسعة لأدوات تحليل الخطاب التراثي، وطرق تشغيلها وتطبيقها. وهو ما يعني المزج بين التنظير للأداة وتطبيقها في الوقت ذاته.

يطبق البحث هذا الإطار التحليلي على سلسلة من الخطب التي تشكل حدثًا خطابيًا واحدًا ينتمي إلى التراث القديم، تُعرف تاريخيًا بحادثة السقيفة، التي وقعت يوم وفاة النبي (ص)، وشهدت أشكالا من التفاوض والمحاجة السياسية حول قضية التنازع على حيازة سلطة الحكم بين الأنصار والمهاجرين. ويتكون هذا الحدث الخطابي من سلسلة من الخطب المتتابعة، لبعض كبار الصحابة هم سعد بن عبادة (الأنصاري) وأبو بكر الصديق (المهاجري) والحباب بن المنذر (الأنصاري) وعمر بن الخطاب (المهاجري)، وبشير بن سعد (الأنصاري)، وأبي عبيدة بن الجراح (المهاجري)؛ رضي الله عنهم أجمعين. ويرجع اختيار هذا الحدث الخطابي على وجه التحديد - بالإضافة إلى أهميته التاريخية الحاسمة - إلى أنه يُتيح دراسة عدد من المسائل المهمة لمحللي الخطاب السياسي التراثي مثل مُشكل النوع أو التصنيف، والأفعال المادية للغة السياسة، ودورها في حسم النزاع السياسي المحتقن، وأساليب تداول الكلام بين المخاطبين، وطرق تمثيل الذات والآخرين. وذلك إضافة إلى الظواهر التقليدية في الخطاب السياسي مثل القيمة التأثيرية والإقناعية للاختيارات الأسلوبية بدءًا من الصوت مرورًا بالاختيارات الصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية، ودور طريقة الأداء في إنتاج الأثر الكلي

للخطاب. إضافة إلى ذلك، فقد كان من محفزات اختيار هذا النص وجود معرفة جيدة بسياق إنتاجه وتداوله، والآثار المترتبة عليه في وقت إنتاجه وتداوله، وفيما تلاه من أزمنة.

يشتمل البحث على مقدمة نظرية موجزة أعرض فيها بعض ملامح مقاربة عربية قديمة لدراسة الخطابة، هي مقاربة الجاحظ كما تتجلى في كتابه "البيان والتبيين"، ثم أتناول بعض أهم خصائص المعالجة الراهنة للخطابة السياسية. أما الشق التحليلي فيتضمن تأطيرًا لإجراءات شاملة في تحليل الخطاب التراثي، تطبيقًا على خطب السقيفة. والبحث من هذه الزاوية يضع إجراءات التحليل في صدارة البحث، بينما تقوم التحليلات الفعلية للخطب المدروسة بوظيفة التمثيل على الإجراء.

الإطار التراثي لدراسة الخطابة؛ نموذج الجاحظ في البيان والتبيين:

من بين البلاغيين العرب القدماء يظل الجاحظ أحد أبرز من عالجوا الخطابة العربية القديمة. فعلى الرغم من الإسهام المهم لفلاسفة مسلمين مثل ابن سينا وابن رشد في تلخيص كتاب الخطابة لأرسطو وشرحه، وتقديم تبصرات مهمة عن الخطب العربية في ثنايا هذه الشروح والتلخيصات، فإن خصوصية الجاحظ تكمن في أنه قدم مدخلا ثريًا لدراسة الخطابة استنادًا بالأساس إلى واقع النصوص الخطابية العربية [1].

لقد تناول الجاحظ الخطابة العربية في إشارات استطرادية في عدد من أعماله مثل كتاب الحيوان ورسائل الجاحظ، لكن كتاب "البيان والتبيين" يظل العمل الأكثر انشغالا بالخطابة في تراث الجاحظ. ونظرًا لهذه الأهمية الاستثنائية فسوف أقوم في الصفحات الآتية بتحديد أبرز الموضوعات التي رصدها وعالجها الجاحظ في مقاربته الأصيلة للخطابة العربية، التي يمكن تصنيفها ووضعها في خمس مقولات رئيسة.

1. **توصيف بعض عيوب الجهاز النطقي للخطيب وعيوب الكلام:**

فقد تعرض الجاحظ لبعض ما يعتري اللسان من ضروب الآفات مثل اللجلجة، والتمتمة، واللثغ، والفأفأة [2]، والصفير الناتج عن خلع الأسنان الأمامية [3]، واضطرابات مخارج الحروف [4]. إضافة إلى عيوب الكلام مثل العي والحبسة [5]، والاستعانة (تضمين حشو الكلام) [6]. كما تناول سمات الصوت مثل الجهارة والضآلة وسعة الأشداق [7].

2. **سمات الأسلوب الخطابي:**

مثل الإفراط في الكلام [8]، وضرورات تكرار الكلام ومحظوراته [9]، والقول في الإيجاز وبلاغته [10]. وعيوب أساليب الكلام مثل التشديق والتقعير والثرثرة [11]، والسلاطة والهذر والتكلف والإسهاب [12]. ودواعي الاستشهاد ومواضعه (مثل استحسان الاستشهاد بالقرآن في خطب الحفل) [13]. ومناقشة العلاقة بين مناسبة الخطبة وموضوعها من ناحية، وطولها (أي الزمن الذي يستغرقه إلقاؤها) من ناحية أخرى [14]؛ وسمات الكلام الحسن [15]، والاستعانة بالغريب [16]، وتخير الألفاظ [17]؛ والمقارنة بين أسلوب خطب الأعراب والمولدين [18].

3. **تقنيات الأداء الخطابي:**

فقد تعرض الجاحظ لقضايا الارتجال والبداهة والصنعة والبديه والتحبير والإعداد المسبق للخطبة [19]. وحال الخطيب أثناء الخطابة، كما تظهر في رباطة الجأش وسكون الجوارح [20]، والنظر في عيون الناس [21]، والنحنحة [22]، ومس اللحية [23]. كما عالج أثر ظواهر فسيولوجية مصاحبة لأداء الخطبة في كفاءة الخطيب، سواء أكانت ظواهر سلبية مثل الارتعاش والرعدة والعرق [24]، أم إيجابية مثل كثرة الريق [25]. كذلك تناول الجاحظ الظروف التي يتعين على الخطيب فيها الصمت عن الكلام [26]، وما يجب على الخطيب فعله إذا استعصى عليه القول وتلجلج [27]، وطقوس الأداء الخطابي العربي مثل الإمساك بالعصا والتوكؤ عليها [28]، والخطابة على صهوة الركائب [29]، وارتباط الوقوف أو القعود أو الجلوس بمناسبة الخطبة (على نحو ما كان العرب يخطبون جلوسًا في خطب النكاح، ويخطبون قيامًا في خطب الصلح بين المتخاصمين) [30].

4. **الموقف الخطابي:**

فقد تناول الجاحظ أبعادًا مختلفة لقضية مراعاة حال المخاطَب، مشيرًا إلى ضرورة مراعاة الخطيب لحال السامع (خاصة مكانته في السُلَّم الاجتماعي، ودرجة علمه) [31]، ومراقبة حاله من النشاط للاستماع أو الملل [32]، ومراعاة المقام [33]، وتقسيم مستويات الكلام والمعنى بحسب طبقات المستمعين (الخاصة والعامة وخاصة الخاصة) [34].

5. **العلاقة بين الخطاب والواقع:**

فقد أشار الجاحظ إشارات عابرة إلى مسائل مثل كراهة البيان بسبب الفجوة بين القول والفعل [35]، وارتباط الخطابة بحكم القيمة على الشخصية [36]، وأثر الخطابة في تغيير

إدراك الواقع [37]، والتأكيد على انتشار الخطابة في كل الأمم [38]، مع التعليل لتميز العرب بين الشعوب بها [39].

على الرغم من أن المسائل السابقة تغطي مساحة كبيرة من القضايا التي تُعالَج في دراسة الخطابة، فإن معالجة الجاحظ لها لا تؤسس معرفة منهجية منضبطة، بالقدر الذي يتيح الاعتماد عليها بوصفها أساسًا لإطار تحليلي للخطابة. وهو ما يرجع إلى الأسباب الآتية:

أولاً: على الرغم من اتساع مجال الظواهر التي تعرض لها الجاحظ، وتبصراته العميقة بشأن بعض المسائل المهمة في دراسة الخطابة - مثل أثر التغيرات الفسيولوجية على أداء الخطيب، والعلاقة بين الخطابة والواقع - فإن المعرفة التي قدمها الجاحظ في كتابه عن الخطابة جاءت في شكل ملاحظات جزئية متناثرة، ولم تنتظم في نسق تنظيري، كما هو الحال مع معالجة أرسطو أو أفلاطون لها [40].

ثانيًا: تنطوي ملاحظات الجاحظ على توصيفات دقيقة للأداء الخطابي؛ خاصة فيما يتعلق بالعناصر الثقافية التي أثارت مجادلات حضارية (كما يتجلى في شعيرة الإمساك بالعصا أو الخطابة من فوق الدواب)، وتقترن هذه التوصيفات بتعليلات ثقافية وتاريخية مفيدة للغاية من الزاوية الأنثربولوجية. كما أن البُعد المعياري يهيمن على عديد من ملاحظات الجاحظ؛ في سبيل الوصول إلى "خطابة نموذجية"، وبعض أفكاره المتناثرة حول ما يجب على الخطيب عمله أو قوله في سياق خطبته، يمكن اعتبارها نواة كتيبات إرشادية لاكتساب المهارات الخطابية. ومع ذلك - وربما بسبب ذلك - فإن البُعد النقدي يكاد يختفي من معالجة الجاحظ للخطابة؛ سواء من زاوية الفجوة بين اللغة والواقع، أو الوعد اللغوي والإنجاز، أو من زاوية الممارسات السلطوية من ترسيخ للامساواة الاجتماعية والتمييز والهيمنة والسيطرة وغيرها من ممارسات اجتماعية غير إيجابية تُنجزها الخطابة؛ خاصة السياسية منها.

ثالثًا: لا يقدم الجاحظ في تناوله للخطابة أدوات لتحليل الخطب أو إرشادات لمقاربتها، وتبدو فكرة منهجية التحليل أو إطار المعالجة شبه غائبة عن خطة تأليفه. ويبدو هذا أحد أكثر العيوب خطورة في المعالجة العربية للخطابة بوجه عام، ومعالجة الجاحظ لها بوجه خاص.

ولكن على الرغم من هذه الانتقادات فإن القائمة التي سبق أن عرضتها للموضوعات التي تناولها الجاحظ لا تخلو من فائدة كبيرة. إذ يُمكن التعامل معها بوصفها لائحة أولية

لأبعاد مختلفة للحدث الخطابي. كما أن ملاحظاته الثقافية تقدم معلومات ثرية للباحثين ذوي الاهتمامات الأنثربولوجية، المنشغلين بطقوس الشعوب في الخطابة، وتفسيرات هذه الطقوس.

نحو إطار معاصر لتحليل الخطاب التراثي:

على مدار العقدين الماضيين ظهر عدد كبير من أطر تحليل الخطاب ومقارباته ومناهجه. تتلاقى في مجموعة من الملامح المشتركة، لعل أهمها:

- الاهتمام الجذري بسياق إنتاج الخطاب وتداوله؛
- دراسة عمليات التفاعل بين المشاركين في إنتاج الخطاب وتداوله وتلقيه؛
- التركيز على ما تفعله اللغة أكثر من التركيز على ما تقوله؛
- التركيز على الآثار المعرفية والسلوكية للخطاب وعلاقتها بالأنشطة التفاعلية في سياق تداوله؛
- الاهتمام بالعلاقات المعقدة بين النص والنصوص الأخرى التي يتفاعل ويشتبك معها؛
- توظيف أدوات ومفاهيم من شبكة واسعة من العلوم الإنسانية في دراسة الخطاب؛

وهو ما يُضفي طابعًا بينيًا على دراسة الخطاب، ويفرض على الباحثين العمل ضمن فرق أو مجموعات بحثية.

- الميل إلى الاشتغال على مدونات كبيرة قد تصل في بعض الأحيان إلى مئات الآلاف من الكلمات؛
- الدمج بين دراسة اللغة ودراسة علامات أخرى في نفس الخطاب، من أهمها الصورة والصوت واللون والحركة.[41]

هذه الملامح بالطبع لا تتحقق كلها في دراسة واحدة، وإنما تمثل شكلا من أشكال الطموح البحثي الذي تقيده شروط المادة المدروسة، والحدود الزمنية والاقتصادية للبحث، والظروف الخاصة التي يشتغل فيها كل باحث أو فريق بحثي على نحو منفرد. وعلى سبيل المثال فإن دراسة الآثار الفعلية لخطاب ما قد تكون متعذرة إذا كان هذا الخطاب قد أُنتج وتدوول في حقبة غابرة، لم يتسن فيها تسجيل الآثار التي أحدثها في المخاطبين الفعليين. كما أن طموح دراسة مدونات كبيرة قد تواجهه عقبة عدم الإلمام الكافي بكيفية عمل برامج تحليل المدونات اللغوية الكبيرة، أو عدم القدرة على الحصول على هذه البرامج، أو عدم تطويع برامج فعالة لمعالجة اللغة التي يشتغل عليها، كما هو الحال في كثير من التطبيقات التي تخص اللغة العربية.

هذه الملامح المشتركة بين معظم مقاربات تحليل الخطاب ومناهجه لا تُخفي واقع تنوع هذه المقاربات والمناهج وتباينها، وهو ما يظهر على نحو جلي في تباين المنطلقات النظرية والخلفيات المعرفية، وقوائم الظواهر التي تخضع للدراسة في إطار كل مقاربة ومنهج، وأسئلة البحث الأثيرة التي يطرحها كلٌّ منها، وإجراءات التحليل التي يتبناها. وفي الحقيقة فإن هذا التباين يصل إلى حد الاختلاف في التحديد المفاهيمي للمصطلحات الأساسية في حقل تحليل الخطاب وفي غاية الحقل ووظائفه، وهو اختلاف يصل إلى حد أن المقاربات التي تعمل في إطار توجه واحد من توجهات تحليل الخطاب، تتبنى تصورات متباينة لمفاهيم مركزية بما فيها مفهوم الخطاب ذاته، وهو ما يجعل معظم دارسي الخطاب حريصين على تحديد تصوراتهم الخاصة للمفاهيم المحورية في تحليل الخطاب في كل ما يكتبون [2 4].

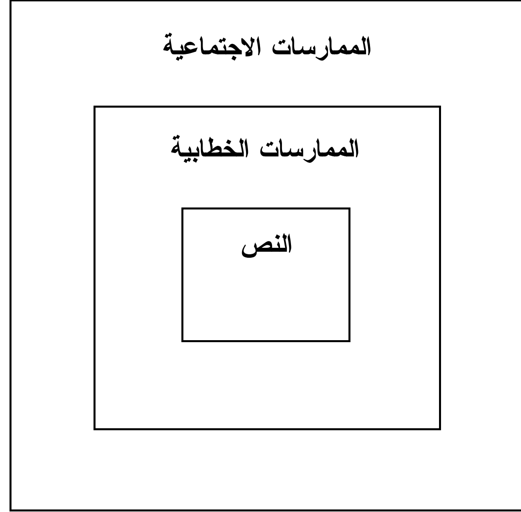
إنني أنظر إلى هذا التنوع والاختلاف على أنه من أكثر الظواهر إيجابية في حقل دراسات الخطاب. فهو يعني أن ثمة جدلاً وتطورًا دائمين؛ فحين يتحول حقل دراسي ما إلى قائمة مغلقة من الإجراءات والمفاهيم والأفكار فإن هذا يكون علامة أكيدة على تكلسه وجموده، كما رأينا على نحو واضح في الدرس العربي للبلاغة ما بعد السكاكي. وعلى الرغم من أن بعض دارسي الخطاب - خاصة الباحثين الناشئين - ممن يتعاملون مع بعض مقاربات تحليل الخطاب بوصفها وصفات جاهزة كاملة، ويقصرون عملهم على إعادة تطبيقها بقضها وقضيضها، فإن كثيرًا من دارسي الخطاب يسعون باجتهاد لمساءلة المصطلحات والمفاهيم والإجراءات، بل والممارسات والغايات أيضًا.

هذا الحرص على أهمية البصمة الفردية لمحلل الخطاب، لا تنطلق من تصور مثالي بأهمية إسهام كل دارس للخطاب في مراجعة مقولات العلم النظرية والتحليلية فحسب، بل تنطلق بالأساس من إدراك أن كل شاهد من شواهد الخطاب - بل كل ملفوظ- إنما يمثل حدثًا خطابيًا فريدًا في ذاته، ومن ثمَّ يحتاج إلى معالجة تُراعي هذا التفرد، وتستكشفه. وتزداد أهمية هذا الوعي بضرورة مساءلة النظرية والممارسة في إطار تحليل الخطاب، إذا وضعنا في الاعتبار أن دراسات الخطاب نشأت في سياق ثقافي وحضاري مغاير، أمريكي- أوروبي تحديدًا. وهو ما يعني أن هذا الحقل المعرفي مُحمَّل بانحيازات ثقافية وحضارية، وربما أيديولوجية أيضًا. كما أن اللغات التي استُنبطت منها الأطر النظرية لهذا الحقل المعرفي، وإجراءات دراستها، هي اللغات الأوروبية، والإنجليزية بخاصة. وهي لغات مُغايرة في أنساقها الصوتية والصرفية والتركيبية للغات أخرى، مثل اللغة العربية. ومن المؤكد أن دارسي

الخطاب العرب يحتاجون إلى الوعي بخصوصية اللغة التي يشتغلون عليها، لكي يستطيعوا مقاربتها على أفضل نحو ممكن [3] [4].

إن القول بأهمية مراعاة خصوصية الحدث الخطابي المدروس، وخصوصية اللغة والثقافة التي ينتمي إليها هذا الحدث الخطابي، لا تحول دون تقديم أطر تحليلية للباحثين الناشئين. لكن يجب التأكيد دومًا على أن هذه الأطر ليست نماذج كاملة مغلقة، بل هي مجرد أطر استرشادية تعريفية، لا يجب الالتزام بها، والثقة التامة بها، بل تجب في الحقيقة مساءلتها ونقدها وتكييفها وتطويرها. والإطار التحليلي الذي أشغله هنا لا يشذ عن ذلك.

هناك منظورات مختلفة للتعامل مع الحدث الخطابي، ومن الطبيعي أن يؤثر تغير المنظور في صياغة الأطر التحليلية المختلفة للخطاب. فمقاربة فيركلوف للخطاب (Fairclough, 1992, 2003, 2007) تحدد ثلاثة أبعاد للحدث الخطابي؛ هي كونه نصًا text، وكونه ممارسة خطابية discursive practice، وكونه ممارسة اجتماعية social practice. وذلك كما يتضح في الشكل الآتي[2]:



أبعاد الحدث الخطابي عند فيركلوف

يكشف الشكل السابق عن علاقة الاحتواء المتبادل بين النص والممارسات الخطابية والاجتماعية؛ فالنص يمثل جزءًا من الممارسات الخطابية من ناحية والممارسات الاجتماعية الأوسع من ناحية أخرى. كما يكشف عن أهمية الممارسات الخطابية، بما فيها عمليات إنتاج

الخطاب وتلقيه، في صياغة النص والممارسة الاجتماعية في الوقت ذاته، ولابد أن يتجلى الوعي بالأبعاد المختلفة للحدث الخطابي أثناء عملية التحليل.

لقد وضع فيركلوف إزاء كل بُعد من هذه الأبعاد مستوى من مستويات التحليل. المستوى الأول هو مستوى تحليل النص، ويدرس الملامح اللغوية للخطاب وتنظيم مكوناته الملموسة مثل المفردات والتراكيب والتماسك النصي وبنية النص. أما المستوى الثاني فهو تحليل الممارسات الخطابية؛ أي تحليل الخطاب بوصفه شيئًا يُنتَج ويُوزَّع ويُستهلك في المجتمع. ويرى بلومارت وبولكن أن مقاربة الخطاب بوصفه ممارسة خطابية يعني أنه أثناء تحليل المفردات والتراكيب والتماسك النصي وبنية النص يجب أن يتوجه الاهتمام إلى أفعال الكلام والتماسك المعنوي والتناص؛ وهي عناصر تربط النص بسياقه. وأخيرا، يقوم المستوى الثالث بتحليل الممارسات الاجتماعية؛ أي المؤثرات الأيديولوجية وعمليات الهيمنة التي يُعد الخطاب مظهرًا لها [44].

في المقابل، فإن مقاربةً لباحث آخر مثل توين فان دايك لتحليل الخطاب تركز على البُعد المعرفي للحدث الخطابي، ومن ثمَّ يُعطي أهمية كبيرة لما يحدث في الذهن البشري أثناء معالجة الخطاب، وفي سياق التفاعل. وفي الحقيقة فإن الفهم المتباين للحدث الخطابي عند محللي الخطاب ينعكس بوضوح على تفضيلاتهم للظواهر المدروسة من ناحية ولأدوات تحليلها من ناحية أخرى [45].

الإطار الذي أقدمه في هذا البحث - وأفيد فيه من مقاربات عديدة في تحليل الخطاب - يتعامل مع الحدث الخطابي بوصفه سلسلة من التفاعلات التواصلية بين البشر. ومن هذه الزاوية، فإن العناصر اللفظية والعلاماتية يكون لها نفس أهمية المكونات المادية في إنشاء الحدث الخطابي، ومن ثمَّ فلابد أن يتوجه التحليل إليها جميعًا. وعلى سبيل المثال فإن تحليلا لخطب السقيفة، لا يجب أن يُغفل أثر العوامل غير اللفظية في توجيه الحدث الخطابي؛ مثل الصراع القديم بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين تشكلان معًا جبهة الأنصار، إضافة إلى الحالة الصحية لزعيم الأنصار "سعد بن عبادة" (زعيم الجبهة التي كانت تتنازع على السلطة مع الجبهة التي يمثلها أبو بكر وعمر)؛ فقد كان مسجى على سرير، لا يستطيع أن يُسمع الناس صوته، ويحتاج إلى من ينقل عنه، وغير قادر على الاشتباك مع أقاويل الخصوم [46]. وغير بعيد عن هذا تأثير القوى المادية الصلبة؛ كما تجلت - على سبيل المثال - في الاستعراض الحشدي الذي قامت به قبيلة "أسلم" تأييدًا لأبي بكر؛ في مواجهة منافسيه [47].

يتشكل الإطار التحليلي الذي أقترحه هنا من عدد من العمليات المتتابعة تبدأ بعمليات فهم وتأسيس عناصر السياق بمعناه الشامل؛ لكشف العوامل المؤثرة في صياغة النص وأدائه والتفاعلات التي انطوى عليها الحدث الخطابي، ثم تحليل النص للكشف عن الطريقة التي يَبني بها النصُّ والأداء وعمليات التفاعل الواقعَ وتمثيلاته، وعلى نحو أكثر دقة، يستكشف الباحث في هذا الجزء كيف تمارس الاختيارات اللفظية والأدائية وأشكال التفاعل بين المتكلم والمخاطَب دورًا في تغيير علاقات السلطة، وإنتاج تمثيلات للواقع وسيناريوهات للمستقبل، من خلال تتبع عمليات الإقناع والتأثير التي ينجزها المشاركون في الحدث الخطابي. وأخيرًا تأتي مرحلة دراسة الاستجابات الفعلية التي يُنتجها المشاركون في الحدث الخطابي؛ وهي استجابات إما آنية (مثل مبايعة بعض الحاضرين لأبي بكر بالإمارة) أو لاحقة (مثل رحيل سعد بن عبادة عن المدينة نتيجة للحدث). وقد تكون الاستجابات في شكل أفعال مادية أو في شكل استجابات خطابية، لكنها على أية حال تُدرس من زاوية العلاقة بين الاستجابة والعناصر التشكيلية والأدائية للخطاب من ناحية، والعمليات التفاعلية والإدراكية المرتبطة به من ناحية أخرى.

تتضمن المرحلة الأولى تأسيس فهم تاريخي للحدث الخطابي، وتأسيس فهم جيد للفاعلين المشاركين في الحدث. ويسعى الباحث في سياق ذلك إلى بلورة معرفة جيدة بالمتكلم والمخاطَب وطبيعة العلاقة بينهما، والجماعات أو الكيانات التي يمثلها كلٌّ منهما، أو يدافع عن مصالحها. والسياق المكاني لتداول الخطاب، والشروط النصية التي قد يفرضها (مثل الافتتاح بالحمد والاختتام بالدعاء في خطب المساجد، وبروتوكولات المخاطبة في خطب المحافل الدولية، وقيود الوقت في خطب الاحتفالات..إلخ)؛ وزمن إلقاء الخطاب، وتأثيره في صياغته وإنجاز آثاره (مثل اختيار بعض السياسيين مخاطبة مواطنيهم في أوقات متأخرة من الليل، والخطب المناسباتية في أوقات متكررة مثل الأعياد القومية)؛ ووسيط توزيع الخطاب ودوره في صياغة الرسالة، وفي تقييد استجابات الجماهير أو إتاحتها (مثل الفرق بين البيان المتلفز المبثوث عبر الهواء مباشرة، والخطبة الحية التي تُلقى أمام جمهور فعلي، وتُبَثُّ وقائع إلقائها مباشرة عبر التلفزيون، مصحوبة باستجابات الجماهير).

أما المرحلة الثانية فتتضمن دراسة تشكلات الخطاب، بدءًا من المستوى الصوتي والصرفي والمعجمي والتركيبي، وانتهاءً بالمستوى الدلالي والتداولي. كما تُدرس أفعال الكلام التي يُنجزها الخطاب، أو يسعى لإنجازها، والتضمينات والافتراضات التي يتأسس

عليها أو يرسِّخها ويُفعِّلها، والتشكلات المجازية التي تقدم تمثيلات محددة للذات والآخرين، والموضوع والعالم، وطرق المحاججة وأنواع الحجج التي يستخدمها منشئ الخطاب، وعمليات التفنيد والمساءلة التي يمارسها على الحجج المناقضة، والعلاقات النصية التي يؤسسها النص مع النصوص السابقة عليه والتداخلات الخطابية التي يوجدها، وعمليات إعادة إنتاج النص في سياقات أخرى عبر الزمن، وغيرها من الظواهر المرتبطة بتحليل تشكلات النص والخطاب.

وفي المرحلة الثالثة يسعى الباحث لتأسيس فهم جيد لوظائف الخطاب وآثاره المحتملة والفعلية في الجمهور، ويتحقق ذلك من خلال محاولة الباحث رسم خريطة للاستجابات الفعلية التي أنتجها متلقو الخطاب في لحظة التلقي الأولى للخطاب، وعلى مدار تاريخ تلقيه اللاحق، مجتهدًا في تصنيف هذه الاستجابات وتقديم قياسات دقيقة لها. كما تتوجه عناية الباحث إلى الكشف عن العلاقة بين متغيرات السياق وتشكلات الخطاب واستجابات الجمهور من ناحية، ومحاولة تفسير هذه العلاقة من ناحية أخرى.

وفيما يأتي سوف أتناول بإيجاز بعض أهم الإجراءات التي يتضمنها هذا الإطار التحليلي، مدركًا أن دراسة كل تجليات الخطاب في مراحله الثلاث أمر عسير في سياق دراسة محدودة كميًّا مثل هذه الدراسة. ومن ثمَّ، فقد اخترت أن أدرس الإجراءات والظواهر الأكثر فاعلية في مقاربة النص التراثي الذي اخترته موضوعًا للتحليل - خطب السقيفة - مدركًا أن هذا الاختيار يُضحي بدراسة بعض أهم ملامح الخطابات الراهنة مثل ظاهرة التهجين العلاماتي Semiotic hybridity، ويفوت فرصة تقديم دراسة وافية للاستجابات الفعلية للمتلقين، وهو ما كان من المحتمل أن تتيحه دراسة تسجيل مرئي لحدث خطابي راهن. ومع ذلك فإن التأثير الهائل الذي مارسه حدث السقيفة، وتعدد الروايات التي سردت خبره، وتفصيلها يُمكن أن يكون تعويضًا مناسبًا.

المرحلة الأولى: دراسة عمليات إنتاج الخطاب وسياقات إنتاجه وتداوله

1. تأسيس فهم تاريخي للحدث الخطابي

الأحداث الخطابية متجذرة في التاريخ؛ فكل حدث خطابي هو حلقة في سلسلة من الأحداث التي تتأثر على نحو شامل بمعطيات السياق التاريخي الذي أنتجت فيه. وحادث السقيفة يتجاوز كونه مجرد حدث خطابي إلى كونه حدثًا تاريخيًا بارزًا في تاريخ العرب والمسلمين.

لقد وقع حادث السقيفة ظهيرة يوم الاثنين الموافق 12 ربيع الأول عام 11 هجرية، الموافق الثامن من يونيو 632 ميلادية، بعد نحو ساعة أو أكثر قليلا من وفاة النبي (ص)، واستمر - بحسب الروايات المتوافرة - طوال ظهيرة وعصر نفس اليوم. وعلى الرغم من ذلك، فإن الخطب والمحاورات التي وصلت إلينا لا تستغرق في أطول الروايات أكثر من ربع الساعة (ما يقرب من 700 كلمة بحسب أطول الروايات لكل خطيب (انظر ملحق البحث)، بمعدل نطق 50 كلمة في الدقيقة، وهو مُعدل بطيء للغاية لسرعة نطق الكلمات، أخذًا في الاعتبار عوامل التشويش). وهو ما يعني أن ما وصلنا من هذا الحدث الخطابي - الذي سُجل بعد ما يقرب من قرنين من وقوعه - ربما يكون نسخة شديدة الإيجاز من الحدث الخطابي الفعلي. ومن الشيق لمحلل الخطاب، تتبع الروايات المختلفة للحدث، بهدف الكشف عن المسكوت عنه في كل رواية، وما وضِع في الصدارة وما تم المرور عليه مرور الكرام، وتفسير عمليات الحذف والإضافة التي تقوم بها كل رواية للحدث.

ثمة روايات شديدة التمايز لوقائع السقيفة؛ الأولى تُركز على الفاعلين الحاضرين في ساحة السقيفة، وتتعامل مع الأحداث بوصفها محاولة لتأسيس شورى إسلامية لتداول السلطة، يتم فيها دفع الحجة بالحجة بهدف الوصول إلى حل وسط يضمن للدولة الإسلامية البازغة الاحتفاظ بوحدتها وقوتها بعد وفاة رمزها ومؤسسها؛ النبي (ص). أما الرواية الثانية فتراوح بين مشهد السقيفة وما كان يحدث في بيت النبي، حيث كان علي بن أبي طالب وعمه العباس مشغولين بجنازة النبي (ص)، غير مشاركين فيما يدور في السقيفة من محاولات لتسوية النزاع على السلطة. وكل رواية من الروايتين تُنتج فهمًا مختلفًا للأحداث، وأَنتجت بالفعل مواقف شديدة التباين، ظلت مؤثرة على الساحة الإسلامية حتى الوقت الراهن.

إضافة إلى ذلك فإن فهم حادث السقيفة يحتاج إلى معرفة وثيقة بتاريخ الإسلام المبكر، في قريش والمدينة؛ فثمة إشارات نصية، لا يمكن الإحاطة الكافية بها دون معرفة جيدة بهذه الفترة التاريخية، مثل الإشارات إلى واقع الحياة القاسية التي كان المهاجرون يحيونها في مكة قبل الهجرة، مقارنة بما قدمه لهم الأنصار بعد ارتحالهم إلى المدينة. وليست المعرفة بعادات وتقاليد القبائل العربية في نقل السلطة بأقل أهمية من ذلك، وبعض الحجج التي يحتج بها أبو بكر وعمر على أحقية المهاجرين بالحصول على السلطة تستند إلى هذه التقاليد والعادات، مثل شرعية نقل السلطة على أساس قبلي.

2. تأسيس فهم جيد للفاعلين المشاركين في الحدث الخطابي

أتبنى هنا فهمًا للفاعل بوصفه كل من يمارس دورًا في عملية إنتاج الخطاب وإلقائه وتداوله والتأثر به. وبذلك لا يقتصر مفهوم الفاعل في الحدث الخطابي على المتكلم (المخاطِب) بوصفه وحدة غير قابلة للتجزيء. وربما كان الأكثر ثراءً تبني التمييز الذي وضعه إيريك جوفمان - في دراسته لتشكيلات الإنتاج الكلامي - بين صانع الحركة animator والمؤلف author والفاعل الأصلي principal، وهم قد يكونون أو لا يكونون ذات الشخص [48]. ففي إطار الخطابة السياسية - نقلاً عن ميشيل دون - فإن "صانع الحركة أو ما يُطلق عليه جوفمان <آلة الكلام>، هو الشخص الذي يقرأ بصوته شواهد الخطاب؛ وهذا سوف يكون عمومًا المتكلم أو المتكلمة نفسها. والمؤلف هو "الشخص الذي انتقى المشاعر التي يتم التعبير عنها، والمفردات التي تمَّ تشفير المشاعر بواسطتها [49]"، الذي لا يكون في - حالة الخطبة السياسية - مجرد كاتب أو كُتَّاب الخطبة (..) بل جماعة الممارسة المنخرطة في صياغة الخطبة. أما الفاعل الأصلي فهو الشخص الذي "يتم ترسيخ موقفه من خلال الكلمات التي قيلت (..) وهو شخص ملتزم بما تقوله الكلمات" [50]. وفي الخطبة السياسية فإن هذا الشخص قد يكون المسئول الرسمي، أو قد يتجاوز ذلك، كما هو الحال على سبيل المثال عندما يمكن أن تُفهم كلمة < نحن> المجلس الوزاري على أنها تقرر مسئولية رئيس الدولة أو إدارة بأكملها عن خطابه" [51].

بناء على هذا التقسيم، فإن أبا بكر حين كان يتحدث في سقيفة ساعدة، فإنه كان صانع الحركة والمؤلف معًا؛ بينما كان الفاعل الأصلي هم جماعة المهاجرين التي يُدافع عن سعيها للسيطرة على السلطة. أما في حالة سعد بن عبادة، فإن صانع الحركة هو الشخص الذي كان يتلقى عنه كلامه ويُسمعه للحاضرين ممن كان سعد غير قادر على إسماعهم صوته بسبب مرضه، في حين يظل سعد هو مؤلف الخطبة، والفاعل الأصلي هم الأنصار ممن ارتأوا أحقيتهم في حيازة السلطة.

لا يقتصر مفهوم الفاعل الخطابي على منتِج الخطاب وحده، بل يتعدى ذلك إلى متلقي الخطاب (المخاطَب) بوصفه فاعلاً رئيسيًا في تشكيل الحدث الخطابي؛ سواء أكان هذا المُخاطَب مقصودًا أم غير مقصود، نصيًا أم متخيلاً، مثاليًّا أم فعليًّا، مباشرًا أم غير مباشر [52]. وفي حالة خطب السقيفة نلاحظ أن المتحدثين من المهاجرين كان المخاطب النصي في خُطبهم هو الأنصار؛ كما يظهر في نداء أبي بكر للأنصار في خطبته (يا معشر الأنصار)،

أو الناس في العموم، كما في قوله في مفتتح خطبته "أيها الناس" وفق رواية أخرى للخطبة [53]. أما خطباء الأنصار فقد توجهوا بخطابهم إلى الأنصار فقط، غالبًا بصيغة: "يا معشر الأنصار"، وهي الصيغة التي استخدمها سعد بن عبادة والحباب بن المنذر وبشير بن ساعد في مخاطبة المتلقين في السقيفة [54].

يتطلب فهم الحدث الخطابي البحث المعمق في القوة الاجتماعية للفاعلين (متكلمين ومخاطَبين)، ومحاولة الكشف عن طبيعة علاقات السلطة القارة بينهم، والتجليات الخطابية لهذه العلاقات. فسوف نلاحظ مثلا كيف استخدم أبو بكر جملا اقتراحية في خطابه مع الأنصار كما في قوله "فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور"، في حين استخدم الحباب بن المنذر - أحد سادة الأنصار ممن رأوا أحقية الأنصار في الاستحواذ على السلطة - لغة أمرية في مخاطبته لبني قومه؛ كما في قوله "يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور [55]"، في حين استخدم عمر بن الخطاب جملا تهديدية في مخاطبته للأنصار كما في قوله "من ذا ينازعنا سلطان **محمد** وإمارته!! ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدلٍ بباطل، أو متجانف إثم، ومتورط في هلكة" [56].

المرحلة الثانية: دراسة تشكلات النص، وتركيب الخطاب

يوفر فهم الباحث لسياق إنتاج الخطاب وتداوله تبصرات مهمة حول النص الذي يشكل المادة العلاماتية للخطاب، ومن ثمَّ، يأتي دور عملية التحليل الفاحص للنص، التي يدرس فيها الباحث عن قرب تشكلات النص في مستوياته المختلفة، ويربطها بالمعطيات التي تكونت لديه من دراسة الأبعاد المختلفة لسياق إنتاجه وتداوله. ويمكن أن يشتمل تحليل النص على عدد كبير من الظواهر سوف أتوقف أمام بعضٍ منها، لأهميته على نحو خاص في حدث السقيفة.

1. نوع النص

يُمكن النظر إلى الأحداث التواصلية التي تشكل حدث السقيفة على أنه سلسلة من "الخطب السياسية political speech"؛ حيث تتضمن كل خطبة سلسلة من الملفوظات المتتابعة يلقيها شخص معين أمام جمهور فعلي، حول موضوع سياسي في لحظة تاريخية محددة. ويتعزز إدراج هذه الأحداث في نوع "الخطبة السياسية" حين يتم تفكيك الحدث التواصلي إلى

وحدات صُغرى، كل وحدة تشكل خطبة من الخطب المنفصلة. ويفيد فهم حدث السقيفة على أنه سلسلة من الخطب في توجيه الاهتمام إلى أبعاد العلاقة بين الخطيب والجمهور. لكن حدث السقيفة يمكن النظر إليه من زاوية أخرى على أنه ينتمي إلى نوع "التفاوض السياسي political negotiation"، نظرًا لأن الحدث يأخذ شكل حوار بين طرفين يتنازعان حول قضية سياسية ما، وغايته الوصول إلى تسويات وحلول للتنازع بينهما. وهذا الفهم للحدث بوصفه "تفاوضًا" يوجه الاهتمام إلى آليات تسوية النزاع، وتكتيكات التوصل إلى الحل. وعلى نحو مشابه يمكن النظر إلى حدث السقيفة على أنه ينتمي إلى نوع "الحوار السياسي political dialogue"، لكونه يتضمن سلسلة متواصلة من تداولات الكلام بين مجموعة من المتحدثين؛ وهو ما يوجه الاهتمام إلى الطابع التفاعلي والحواري للحدث.

هذه الإمكانيات المتنوعة للتصنيف تضعنا أمام حقيقة أن بعض الأحداث الخطابية لا يُمكن الإحاطة بأبعادها إلا بواسطة الاعتراف بطبيعتها عبر النوعية. وهو ما يؤكد أن مقولة النوع الخالص قد تفرض قيودًا معوِّقة لدراسة شواهد الخطاب. وعلى سبيل المثال، فإن تصنيف الحدث التواصلي في السقيفة على أنه تتابع من الخطب المنفصلة، سوف يقود إلى إخفاء الطابع الحواري فيها، وهو ما يؤدي بدوره إلى إهمال دراسة ظاهرة شديدة الأهمية هي ظاهرة تبادل أدوار الكلام.

2. تبادل أدوار الكلام turn-taking

لقد نقلت لنا الروايات التاريخية صورة شبه حية لخُطب السقيفة. وهو ما يتيح لنا دراسة ظواهر مهمة في تحليل الخطاب مثل طرق افتتاح الكلام وتبادله بين المتكلمين، والمقاطعة والصمت، واستراتيجيات إنهاء الكلام، وغيرها [57]. ومن المثير للاهتمام أن بعض الروايات تُظهر أن الطرفين المتنازعين - وهما يدافعان عن أحقية كل منهما في السلطة - كانا يتبادلان أدوار الكلام دون اللجوء إلى المقاطعة أو التشويش المتعمد أو الإكراه على الصمت. فحين توقف أبو بكر عن الكلام، بدأ الحباب في الدفاع عن وجهة النظر المضادة، وحين توقف عن الكلام شرع عمر في تفنيد مقالة الحباب، فرد الحباب بدوره مفنِّدًا رأي عُمر، واستمرت نفس آلية أخذ الدور في الكلام مع أبي عبيدة وبشير بن سعد [58].

يمكن تفسير هذه الأريحية النسبية في تداول أخذ الدور في الكلام - كما تعكسها هذه الرواية - على أنها علامة على الطابع التفاوضي لهذا الحدث الخطابي. فلم

يكن الطرفان يسعيان إلى أخذ الأمور إلى مداها باتجاه الصدام. وكان من الجلي أن الأنصار هم من أوجدوا منذ البداية مساحة للتفاوض، أتاحت هذا النوع من تبادل الأدوار. فقبل وصول أبي بكر وعمر وأبي عبيدة إلى السقيفة، كان الأنصار قد انتهوا إلى إمكانية قبول التشارك في الحكم "منا أمير ومنهم أمير". وهو موقف تفاوضي، لا مبدأي. وقد أدرك سعد بن عبادة أن هذه البداية غير الحاسمة، تمثل علامة ضعف في التفاوض مع المهاجرين، وتوقع أن انتقالهم من موقف الاستئثار بالسلطة إلى موقف القبول بتقاسمها قبل أن يبدأ التفاوض هو علامة على الهشاشة، مؤكدًا أن: "هذا أول الوهن". ويبدو أن هذا الوهن ارتبط بالأساس بالوهن الجسدي، الذي كان يُعانيه سعد أثناء الحدث. فمرضه الذي أثّر في قدرته على الكلام حال دون نقل الحدث من دائرة التفاوض إلى دائرة الحرب الكلامية أو الفعلية، كما نفهم من قوله - مُخاطبًا عُمر - بعد أن رأى الأنصار الذين نصبوه أميرًا عليهم، يبايعون أبا بكر بالإمارة: "أمَا والله لو أن بي قوة على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرًا يجحرك وأصحابك" [59].

ثمة ملاحظة أخرى تتعلق بتداول الدور في الكلام، هي عملية التوزيع المخطط للأدوار. وهي ظاهرة شديدة الشيوع في الخطابات المعاصرة. فعادة ما يلجأ الأشخاص ذوو الموقف الواحد إلى توزيع مهام الكلام فيما بينهم، بحيث يدعم كلٌّ منهم الآخر، ويحققوا أغراضهم المشتركة من الكلام. وينتشر مثل هذا التوزيع للأدوار في المؤسسات والمنظمات التي تحتاج إلى مستويات متباينة من الأقوال تعبر عن تفاوتات مقصودة في التعبير عن المواقف؛ كما نرى على سبيل المثال في ثنائية الصقور والحمائم في إسرائيل.

يمكن التعامل مع حادث السقيفة على أنه نموذج جيد لتوزيع الأدوار بين فريق متناغم. فقد طلب أبو بكر من عُمر أن يصمت حتى ينتهي هو من الكلام ثم يقول ما عنَّ له. وحين انتهى أبو بكر من خطابه، وبدأ الحباب في الرد مُنتجًا خطابًا صارمًا، رافضًا للتنازل، تصدى له عُمر، في المرتين الأولى والثانية، وأنتج في المرتين خطابًا لا يقل صرامة وحديَّة. وحين بدا أن الأفق مسدود في الوصول إلى حلول للموقف المتأزم، تدخل أبو عبيدة ليعيد توجيه مسار الكلام نحو التفاوض؛ بسبب خطابات الحباب وعمر المتصادمة. وتبدو أهمية توزيع الأدوار بين أبي بكر وعُمر ذات مغزى في هذا السياق، بسبب طبيعة أسلوب كلٍّ منهما، فقد كان عُمر معروفًا بالشدة والغلظة، في حين كان أبو بكر معروفًا باللين والحُلم. ويبدو أن ثنائية الصقور والحمائم كانت فاعلة بشدة في تحييد بعض الأنصار عن النزاع على السلطة بواسطة خطاب

أبي بكر الرفيق، ومواجهة البعض الآخر ممن أصر على مواصلة النزاع عليها بواسطة خطاب عمر الغاضب المهدد، كما حدث مع خطاب الحباب.

3. الموضوع topic

يحتاج الباحث في تحليل الخطاب إلى تحديد الموضوع الرئيس والموضوعات الفرعية التي يتناولها الحدث الخطابي المدروس، وذلك من خلال رصد الانشغال العام المهيمن على مجمله. وبعد هذا التحديد لموضوع النص تُدرس قضايا لا تقل أهمية مثل كيفية الانتقال بين الموضوعات الرئيسية والفرعية داخل النص، وطبيعة الموضوعات المسكوت عنها، وعلة هذا السكوت.

خطب السقيفة من النصوص ذات الموضوع الواحد، وهو احتجاج طرفين متخاصمين لأحقية كلٍّ منهما بتولي السلطة. ولم يدخل المتحاجون في نقاش أوسع حول ماهية السلطة التي يتنازعونها، ولم تُطرح في النقاش أيَّة بدائل أخرى لحل التنازع على السلطة بخلاف الأسلوب الذي اتبعوه؛ أي التفاوض عبر الخطابة. ولم يُشر أيٌّ من الطرفين إلى أحقية أطراف أخرى بالوضع في الاعتبار في هذا التنازع على السلطة، مثل الهاشميين (بني عمومة النبي "ص")، والمسلمين من خارج قبائل قريش والأوس والخزرج، وهم يشكلون الشطر الأكبر من المسلمين في ذلك الوقت. وينطوي السكوت عن هذه الموضوعات على تضمينات implicatures متنوعة، لعل أهمها هو إدراك المتحاجين لأهليتهما، وكفايتهما لحسم النزاع على السلطة؛ كلٌّ لصالح نفسه أو الطرف الذي يُمثله.

4. تقنيات الاستمالة appeals

توظِّف الخطابات السياسية عادة حزمًا من تقنيات الاستمالة، الموجهة إلى نفوس المخاطبين ومشاعرهم بهدف التأثير عليها. ومن الطبيعي أن فهم آليات عمل الخطاب السياسي لا تكتمل دون الكشف عن هذه التقنيات وتحليلها. وقد تضمنت خطب السقيفة عددًا من الاستمالات النفسية، خاصة في خطبة أبي بكر الصديق الافتتاحية. وسوف أتوقف هنا أمام أحد أبرز هذه الاستمالات، وهي ما يُعرف بالاستمالة بالتقريظ.

تقريظ الجمهور الحقيقي أو المستهدف أحد أكثر الاستمالات شيوعًا وتأثيرًا في الخطاب السياسي بوجه عام[60]. فبواسطة تقريظ المتكلم للجمهور، يستطيع الحصول على تأييدهم لأقواله وأفعاله، واستمالة نفوسهم إليه، وكسر شوكة معارضتهم له. استنادًا إلى أن النفس البشرية مجبولة على حب التقريظ. وقد استعان أبو بكر بهذه التقنية في تعامله مع

قرار الأنصار بالاستحواذ على السلطة. فبعد أن ذكر فضل المهاجرين السابقين إلى الإسلام، قرَّظ الأنصار قائلاً: "أنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه؛ فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور".[61]

يُنجز تقريظ الأنصار في هذا السياق وظائف عملية، منها تهدئة مخاوف الأنصار من احتمال انفراد القرشيين بالسلطة، إذ تضمنت عبارات أبي بكر وعودًا قاطعة للأنصار بشراكة في الحكم، وقرب في المنزلة. كما أن هذا التقريظ يُنجز وظيفة تأسيس تراتبية بين المهاجرين والأنصار؛ فقد جاء تقريظ الأنصار بعد تقريظ أبي بكر للمهاجرين في ترتيب الكلام، واستغرق ثلث المساحة التي استغرقها تقريظ أبي بكر للمهاجرين (44 كلمة في مقابل 130). هذه التراتبية الخطابية تعكس تراتبية هيكل السلطة الذي يقترحه أبو بكر، كما تتجلى في عبارة (نحن الأمراء وأنتم الوزراء).

5. مستويات اللغة

عادة ما تتكون الخطابات المعاصرة من هجين من مستويات اللغة، فقد تمزج بعض النصوص بين مستويات الفصحى المتنوعة، بما يؤدي إلى تنوع أسلوبي داخل الخطبة style variation، في حين تمزج نصوص أخرى بين الفصحى والعامية أو مستويات العامية المختلفة فتنتج ظاهرة المزج اللغوي diglossia، وقد تمزج نصوص أخرى بين اللغة القومية بمستوياتها المتنوعة ولغة أجنبية أو أكثر، بما يؤدي إلى تحويل الشفرة اللغوية code-switching. هذه الظواهر مؤثرة في الكفاءة الإقناعية والتأثيرية في الخطاب، وتُسهم في تأسيس العلاقة بين المتكلم والجمهور، وفي تأسيس صورة معينة للمتكلم وغيرها من الوظائف[62].

من المؤكد أن دراسة التنوع الأسلوبي بمستوياته في النصوص القديمة تواجهها بعض العوائق؛ حيث يندر وجود تحولات من الفصحى إلى العامية أو من اللغة الوطنية إلى لغات أجنبية. والظاهرة الوحيدة التي يمكن أن نصادفها هي وجود تنوع في مستويات الفصحى. ومع ذلك يصعب الوصول إلى استنتاجات مهمة من هذه الظاهرة؛ لأنها قد ترجع إلى آثار تحول النص من نصٍّ شفاهي إلى نص مكتوب. نظرًا لأن معظم النصوص التي تنتمي إلى العقود الأولى من الهجرة سُجلت كتابة بعد حدوثها بعشرات - وربما مئات - السنين، وهو ما يعني

أن أسلوب معظم هذه النصوص خضع لأشكال عديدة من التغيير على يد الرواة الشفاهيين. وهي معضلة تجعل الدراسة الأسلوبية للنصوص المبكرة في صدر الإسلام موضع تساؤل في مجملها.

6. طرق الأداء

كما هو الحال مع السواد الأعظم من الأحداث الخطابية القديمة، فإن المعلومات التي وصلت إلينا عن طُرق أدائها محدودة. فباستثناءات قليلة للغاية [63]، ليست لدينا معلومات شاملة موثقة حول هيئة الخطباء القدماء وحركات أجسادهم وتنويعات أصواتهم أثناء أداء الخطب. وهو ما يتناظر مع نقص آخر في رصد الاستجابات الآنية المباشرة للمخاطَبين أثناء تلقي الخطب. كذلك نادرًا ما تتوافر معلومات حول ما إذا كان الخطيب يستعين بنص مُعدٍّ سلفًا ويستدعيه من الذاكرة أم يتحدث بداهة وبعفوية. ولم تشذ خطب السقيفة عن هذا الأمر. ومع ذلك، يمكن تلمس بعض المعلومات عن أداء الخطب من خلال الأخبار التي وردت حولها. فقد ذكر عُمر بن الخطاب أنه قد أعد خطبة ليلقيها في الأنصار، لكن أبا بكر طلب منه أن يبدأ هو بالكلام، يقول: "أتيناهم (يقصد هو وأبا بكر وعبيدة) وقد كنت زوَّرت كلامًا أردت أن أقوم به فيهم. فلما أن دُفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق، فقال لي أبو بكر: رويدًا حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت. فنطق، فقال عمر: فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه" [64].

يمكن، على نحو مشابه، أن نستنتج من الأفعال التي استُخدمت في رواية الحدث هيئة الحاضرين من الوقوف والرقود والقعود. فمن المؤكد أن الخطيب الأول (سعد بن عبادة)، كان يرقد فوق سريره لمرضه، أما الحباب بن المنذر فقد استخدم رواة الحدث تعبير "فقام الحباب فقال"، في المرتين اللتين ينسب إليه فيهما الكلام. وعلى خلاف ذلك يستخدم تعبير "فقال" في المرات التي تكلم فيها أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح (وهم المهاجرون الثلاثة الذين تكلموا في الحدث) [65]. ويمكن أن نستشف من ذلك أن بعض الأنصار كانوا جالسين في السقيفة، بينما كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة واقفين أثناء مخاطبتهم. وتبدو ثنائية القعود والجلوس مهمة في ضوء التجليات الخطابية للسلطة في ذلك العصر. فقد اعتاد المتحدثون الوقوف بين يدي ذوي السلطان أثناء حديثهم معهم، أما الأنداد فإما يقفون جميعًا، أو يجلسون جميعًا. وهكذا فإن جلوس الأنصار علامة خطابية على امتلاك السلطة، وعلى

نحو مقابل يمكن النظر إلى قيامهم لمبايعة أبي بكر على أنه إيحاء من طريق غير مباشر بتغير علاقات السلطة بين المهاجرين والأنصار.

7. تمثيل الذات والآخرين

الخطاب السياسي لا يصف العالم بل يُنشئه ويغيره. ومن بين الأدوات التي يستخدمها رجل السياسة في إنشاء العالم وتغييره تأتي عمليات تمثيل representation الذات والآخرين والأحداث في الصدارة. تتعدد الأدوات التي تُستخدم في إنتاج التمثيلات، منها أدوات تركيبية مثل الضمائر، ومعنوية مثل النعوت والصفات، وعلاماتية مثل الحركات الإشارية، وحجاجية، مثل نوع الحجج ومصادرها. وتزداد أهمية عمليات التمثيل في خطابات الاشتباك على خلفية الهوية الفردية أو الجمعية، وهي خطابات تقوم عادة على ثنائية "أنا" في مقابل "أنت أو هو"، و"نحن" في مقابل "أنتم أو هم"؛ حيث يسعى المتكلم لبناء تمثيلات إيجابية للذات أو الجماعة في مقابل الآخر/الآخرين، بهدف الحصول على السلطة أو تبرير حيازتها والتحكم فيها، أو الاستئثار بممارستها أو مقاومتها.

يمكن النظر إلى خطب السقيفة على أنها مباراة في براعة التمثيل الإيجابي للذات في مقابل الآخرين. فسعي الأنصار للاستئثار بالسلطة - الذي تحركه دوافع مادية ومعنوية- يجد غطاءه الخطابي في التمثيل الإيجابي للأنصار بوصفهم جماعة، وهو تمثيل يستمد مادته من مساندتهم النبي ونصرته. وليس من الغريب أن خطبة سعد بن عبادة التي يبرر فيها أحقية الأنصار بالاستئثار بالسلطة تتكون بأكملها من سلسلة من التمثيلات الإيجابية للذات الجمعية (الأنصار) (87 من مجمل 133 كلمة، بنسبة تقرب من 65٪ من حجم الخطبة) وسلسلة أقل من التمثيلات السلبية للآخر (المهاجرين) (46 من مجمل 133 كلمة 87، بنسبة تقرب من 35٪ من حجم الخطبة).

وإذا نظرنا إلى موقع تقريظ الذات الجمعية في نص خطبة سعد فسوف نجد أن سعدًا قد بدأ خطبته بتقريظ الأنصار (مركزًا على دورهم في نصرة الرسول)، ثم انتقل إلى إشارات سلبية بشأن المهاجرين (مركزًا على ضعفهم قبل الهجرة عن نصرة الرسول)، ثم فقرة طويلة في تقريظ الأنصار. وهو ما يعني أن التمثيل السلبي للآخر، يجيء بين مطرقة وسندان تمثيلات إيجابية للذات الجمعية. وقد عزز سعد أثر هذه التمثيلات الإيجابية للذات الجمعية بواسطة سلسلة من التراكيب اللغوية التي تعتمد بالأساس على التقديم والتأخير. فهو - على سبيل المثال- يقول: "أثخن الله عز وجل لرسوله **بكم** الأرض، ودانت **بأسيافكم** له العرب؛ وتوفاه

الله وهو **عنكم** راض؛ **وبكم** قرير عين. استبدوا بهذا الأمر فإنه **لكم** دون الناس". وتتضمن الجمل سلسلة من تقديم الجار والمجرور - المميز ببنط ثقيل- ، وفقاً لبنية ثابتة هي: حرف الجر _ اسم أو ضمير (كم)، يشير إلى الأنصار. وهدفها وضع الأنصار وأفعالهم الإيجابية في صدارة النص foregrounding. ولم يكن من الغريب أن يكون رد فعل الأنصار على هذه الخطبة بتمثيلاتها الإيجابية للذات أن قالوا "جميعًا" لسعد: "قد وفِّقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، ونوليك هذا الأمر؛ فإنك فينا مقنع، ولصالح المؤمنين رضًا" [66]. وهو ما يشير إلى أن التمثيلات الإيجابية للذات الجمعية قد دفعت الأنصار ليس إلى موافقة سعد في رأيه حول الاستئثار بالسلطة فحسب، بل إلى اختياره أميرًا عليهم في حال النجاح في الاستحواذ على السلطة أيضًا.

وربما كان من قبيل المصادفة الدالة أن أبا بكر قد أنتج بنية معاكسة لبنية خطبة سعد، وإن كانت متوافقة مع تمثيلاته الإيجابية للذات الجماعية التي يمثلها (المهاجرين). فقد قرَّظ أبو بكر المهاجرين في جمل مجموع كلماتها 60 كلمة، بينما قرَّظ الأنصار في جمل مجموع كلماتها 26 كلمة، بنسبة 30٪ إلى 70٪، من مجمل النص. ولكن المثير للاهتمام أن أبا بكر لم يقدم تمثيلات سلبية للأنصار. وفي حين استخدم أبو بكر ضمير المخاطَب "أنتم" للإشارة إلى الأنصار، فإنه استخدم ضمير الغيبة (هم) - وليس "نحن" - للإشارة إلى المهاجرين. وهو اختيار أسلوبي يُلمح إلى سعي أبي بكر لكسر حلقة المواجهة بين "نحن" و"أنتم"، بهدف تأسيس شكل من الإدماج بين الطرفين. ويبدو هذا مفهومًا بالنظر إلى سياق الخطبة، التي أُلقيت في حشد من الأنصار وسط بيوتهم وأهلهم، وبالنظر إلى غاية أبي بكر من الخطبة، وهي الوصول إلى تسوية لمشكلة التنازع على السلطة، بما يضمن للمهاجرين السيطرة عليها.

8. العلاقات النصية:

تتضمن هذه العلاقات "التناص intertextuality"، الذي يشير إلى تضمين النص كلمات أو تراكيب أو تعبيرات تنتمي إلى نص آخر، أو استلهام أسلوبه وطرقه في التعبير؛ كما هو الحال حين يقتبس خطيب ما نصًا قرآنيًا، ويضمنه في خطبته، أو يحتذي تركيبًا أو أسلوبًا من التراكيب أو الأساليب المائزة لشخص ما، أو الاشتباك معه نقدًا وتلخيصًا أو شرحًا وتعليقًا. كما تتضمن هذه العلاقات "التضفير الخطابي interdiscursivity"، الذي يشير إلى المزج بين خطابين متباينين أو نوعين مختلفين، كما يحدث حين يبدأ خطيب سياسي خطبته

بآيات من القرآن الكريم، ويختتمها بالدعاء، وهو ما ينطوي على مزج بين الخطابين السياسي والديني من ناحية، ونوع الخطبة الدينية والخطبة السياسية من ناحية أخرى. كذلك تتضمن هذه العلاقات ما يُعرف بـ"إعادة بناء السياق re-contextualization [7] [6]" الذي يشير إلى ظاهرة إعادة إنتاج الخطاب في سياقات أخرى غير سياق إنتاجه الأصلي، كما يحدث مثلا عندما يُلقي سياسي خُطبة ما، في محفل ما، ثُم يُعاد إنتاج الخطبة أو أجزاء منها في مانشيتات الصحف وعناوين الأخبار في التليفزيون وصفحات الفيس بووك ومقالات الرأي وبرامج التوك شو وجدران الحوائط واللافتات.

فيما عدا آيتين قرآنيتين تتحدثان عن ممارسات الشرك لدى الجاهليين في خطبة أبي بكر، لم يتناص أيٌّ من المتكلمين الأربعة الرئيسيين مع القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف. وهو ما قد يُفهم منه أن النزاع بين المهاجرين والأنصار على حيازة السلطة لم يكن نزاعا على خلفية دينية، وقد أُنجزت عملية تسوية الخلاف بواسطة عمليات حجاج مكثفة، كانت تقع في قلب الخطاب السياسي، بما فيها حجج تنتمي إلى التلويح باستخدام القوة (كما يتجلى في خُطبة عمر بن الخطاب)، وضرورة تطبيق الأعراف القبلية المستقرة (مثل حجة نقل سلطة المتوفَّى لشخص من نفس قبيلته، كما صاغها أبو بكر).

على الرغم من أن اللغة البشرية لا تعرف الخطابات النقية فإن درجة التهجين في الخطاب تتفاوت من حدث خطابي إلى آخر. وفيما يتعلق بحدث السقيفة فإن الخطاب السياسي يهيمن على الحدث، ويعطي مساحة محدودة للغاية للخطاب الديني. وهو أمر شديد الدلالة في هذا الحدث المؤثر على نحو حاسم في التاريخ الإسلامي.

لقد أعيد بناء سياق حدث السقيفة مئات المرات في شكل مرويات تاريخية أو قصص محكية، ومؤخرًا في شكل أفلام كرتون ودروس في الفضائيات الدينية. ومن المؤكد أن هذه الأشكال المتنوعة من إنتاج الحدث الأصلي تقدم تمثيلات متباينة لنفس الحدث، وتزداد أهمية دراسة هذه التمثيلات إذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن حدث السقيفة ما يزال عاملا من عوامل الخلاف السياسي- المذهبي؛ كما يتجلى في الخلاف بين الشيعة والسنة في الوقت الراهن.

إضافة إلى التناص والتضفير الخطابي وإعادة بناء السياق، توجد أشكال من التفاعل النصي بين خطب السقيفة، يمكن وضعها تحت مظلة ما أطلق عليه ميخائيل باختين "تعدد الأصوات". فخطب المتحدثين الأساسيين في السقيفة يتجلى فيها على نحو واضح ما يُطلق عليه

باختين الحوارية dialogicality بنوعيها المباشرة والمستترة. فكل خطبة تستجيب على نحو مباشر أو غير مباشر لما ورد في الخطبة السابقة عليها. ولأننا أمام خطب حجاجية بالأساس فإن ما يُطلق عليه باختين أيضًا الانتقاد المباشر overt polemic والانتقاد المستتر hidden polemic ينتشران بكثافة في خطب المتحدثين الرئيسيين [68]. وعلى سبيل المثال فإن عبارة عُمر التي يقول فيها "من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو متجانف إثم، ومتورط في هلكة"، تدخل في إطار الانتقاد المباشر لاقتراح الحباب بتقاسم الأنصار السلطة مع المهاجرين (منا أمير ومنهم أمير). أما عبارة أبي عبيدة "يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدَّل وغيَّر" فتنطوي على انتقاد مستتر لتهديد الحباب باستخدام القوة لحسم النزاع على السلطة.

المرحلة الثالثة: دراسة أغراض الخطاب وآثاره والاستجابات المرتبطة به

السلوك اللغوي بوجه عام سلوك نفعي غائي. فوراء كل تلفظ تكمن حزمة من الأغراض التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها بتفاعله مع المخاطَب، ووراء كل تلقٍ هناك أغراض يسعى المخاطَب إلى تحقيقها بتفاعله مع المتكلم. ودارس الخطاب عليه أن يجمع من المعلومات الوفيرة عن سياق التلفظ والتلقي، والعلاقة بين المتكلم والمخاطَب، وطبيعة القول، ما قد يُمكنه من الإمساك بالأغراض التي قد يسعى كلٌّ من المتكلم والمخاطَب لإنجازها بواسطة تفاعلهما اللفظي.

لقد كان البحث في أغراض الخطاب يختلط عادة بتخمين النوايا الكامنة لدى المتكلم فحسب [69]. لكن فهمًا أفضل للخطاب يتطلب الانتقال من البحث في النوايا الدفينة إلى البحث في الأهداف التي توجد مؤشرات عليها، في النص وفي السياق. كما يتطلب الانتقال من التركيز على أغراض المتكلم من التواصل إلى وضع أغراض المخاطَب من التواصل في الاعتبار. إذ يمكّننا هذا الانتقال من إدراك شبكة العلاقات المعقدة التي يمكن أن تنشأ بين أغراض المتكلم والجمهور؛ فما بين التطابق الكامل والتعارض التام توجد سلسلة طويلة من العلاقة بين أغراض الطرفين، تدفع المتكلم والمخاطَب إلى الدخول في عمليات مكثفة من التفاوض التي تترك آثارها على كل تجلٍ من تجليات الخطاب.

تتزايد أهمية دراسة أثر التفاوض حول الفجوة بين أغراض المتكلم والمخاطَب ومقاصدهما في الخطابات الحوارية التي يتبادل فيها المتكلم والمخاطَب الأدوار، كما هو الحال في أنواع مثل المناظرة والمقابلة. وقد أوجدت الوسائط الإلكترونية واقعًا تواصليًّا جديدًا،

يتيح بشكل دائم للمخاطَبين أن ينتجوا خطاباتهم الخاصة ردًا على كل ما يتلقونه. كما يتجلى - على سبيل المثال - في تعليقات الجمهور على الصحف الإلكترونية أو مواقع القنوات التلفزيونية على الإنترنت. وهكذا فإننا أمام حواريات تفاعلية، يكون الجميع فيها متكلمين ومخاطَبين في الآن ذاته.

في إطار الحدث الخطابي الذي جرت وقائعه في سقيفة بني ساعدة، كما نقلته الروايات المتباينة للحدث في كتب التاريخ الإسلامي، يمكن رصد أربعة متكلمين رئيسيين يشكلان فريقين ذوي غايات متعارضة هم؛ أبو بكر وعمر من ناحية وسعد بن عبادة والحباب بن المنذر من ناحية أخرى. كل فريق يدعمه مجموعة من الحاضرين، في سعيه للاستحواذ على السلطة. فالتفاوض على السلطة، بهدف الاستحواذ عليها وإنهاء النزاع المشتبك بشأنها، يبدو هو الغرض النهائي للفاعلين الأساسيين في هذا الحدث الخطابي. ويمكن فهم كل تجليات الخطاب وتفسيره من زاوية هذا التفاوض، كما اتضح من خلال دراسة تشكلات النص والأداء.

دراسة الأثر الخطابي مكون جوهري من مكونات تحليل الخطاب. يتجلى هذا الأثر في النواتج المادية والخطابية التي تنشأ نتيجة الحدث الخطابي. وتتضمن استجابات الجمهور المصاحبة لتلقي الخطاب، والتغييرات في القيم والاتجاهات والسلوكيات التي يُسببها الحدث الخطابي، والتغييرات المادية على أرض الواقع، بسبب هذا الحدث. وفي إطار ذلك تُدرس قائمة ضخمة من الاستجابات الخطابية (مثل المقاطعة والتشويش وإعادة نفس الخطاب حرفيًا أو بصياغات مختلفة، أو إنتاج خطاب مضاد، وهي جميعًا ظواهر تحققت في خطب السقيفة[70]) وغير الخطابية (مثل إقدام المتلقين على مبايعة أبي بكر، وتغيير ولاءاتهم وانتماءاتهم الأولية في نفس الحدث).

يبدو للوهلة الأولى أن دراسة آثار الحدث الخطابي أسهل متناولا من دراسة أغراضه، ومقاصده. غير أن هذا أقرب لأن يكون انطباعًا خادعًا. فأحد التحديات المهمة لدراسة الأثر الخطابي هو خطورة الربط الآلي بين الحدث الخطابي والتغيرات الحادثة في الواقع، بالتزامن مع تداول الخطاب. فكثيرًا ما نفشل في التمييز بين علاقة التزامن وعلاقة العلية. أما التحدي الثاني فهو ميل محللي الخطاب إلى الربط الحصري بين الخطاب وتغيرات الواقع، بمعزل عن العوامل غير الخطابية التي لا تقل أهمية في تغيير الواقع.

وعلى سبيل المثال، فإن إقدام بشير بن سعد على مبايعة أبي بكر فور اقتراح عُمر مبايعته، لا يمكن رده إلى الكفاءة الإقناعية والتأثيرية لخطاب أبي بكر وعمر فقط، وهو أمر سوف يكون غير دقيق تمامًا لأنه يُغفل علاقة التنافس التي كانت موجودة بين بشير وسعد بن عبادة (الشخص الذي اختاره الأنصار للإمارة)؛ وهما أبناء عمومة، وهو ما جعل الحباب يقول لسعد: "أنَفِست على ابن عمك الإمارة؟" [71]. والأمر نفسه يصدق على الأوس، الذين كان قلقهم من تولي خزرجي الإمارة حافزهم الأساس على مبايعة أبي بكر. وقد تمثلت براعة أبي بكر - وفق إحدى الروايات - في اتكائه على استثارة تاريخ العداوة بين الأوس والخزرج، واستدعاء هذا التاريخ إلى الذاكرة الآنية للأنصار، في محاولة لتفتيت جبهتهم، بواسطة تأليب الأوس على الخزرج الذين اختاروا سعد بن عبادة أميرًا، قائلا: "إن هذا الأمر إن تطاولت له الأوس لم تُقصِّر عنه الخزرج. وقد كان بين الحيين قتلى لا تُنسى، وجرحى لا تُداوى، فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي أسدٍ، يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري [72]". ويبدو أن حيلة أبي بكر في نكئ جراح الجاهلية التي أفلح الأوس والخزرج في مداواتها بفضل دخولهم في الإسلام، فقد استجاب الأوس لاستثارة ذاكرتهم التاريخية بتبني طرح أبي بكر، فقال لبعضهم: "والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه [73]". ونظرًا لفعالية هذه الحيلة في تفتيت جبهة الأنصار، فقد علق أحد رواة الأخبار على عبارة أبي بكر بقوله: "فرماهم والله بالمُسكتة" [74]. والخلاصة أن دراسة آثار الكلام وما يحدثه من تغييرات في الواقع يبدو أمرًا شديد الأهمية مع الوضع في الاعتبار أن الخطاب لا يعمل بمفرده، وأن المصاحبة لا تعني العلية.

خاتمة

حاولت على مدار هذا البحث تقديم إطار استرشادي لتحليل الخطاب، مستفيدًا من أطر أخرى قدمها محللون ناقدون للخطاب، مثل نورمان فيركلف. يستند هذا الإطار على إدراك للحدث الخطابي بوصفه حدثًا تواصليًا تفاعليًا غرضيًا، يستهدف إحداث تغيير في الواقع. وحاولت تطبيق بعض إجراءات التحليل التي يقترحها الإطار على حدث خطابي محوري في التاريخ الإسلامي هو "حادثة السقيفة". واستنادًا إلى تحليل هذا الحدث يمكن الخروج ببعض النتائج العامة؛ من أهمها:

أولاً: إن دراسة السياق لا يمكن أن تنفصل عن دراسة تشكلات النص وتقنيات الأداء واستراتيجيات التفاعل بين المتكلمين والمخاطَبين. ومن ثمَّ، فإن السياق - في هذا الإطار- حاضر دومًا في كل مستويات التحليل، وهو لا يشكل مستوى منعزلاً أو مستقلاً عنها.

ثانيًا: أن دراسة التفاعلات الخطابية تُعد أمرًا حاسمًا في فهم كيف يعمل الخطاب؛ سواء على مستوى التفاعلات بين المتكلم والمخاطَب، أو على مستوى التفاعل بين النص والنصوص الأخرى التي يشتبك معها.

ثالثًا: أن أي حدث خطابي يتيح دراسة كم هائل من الموضوعات؛ سواء على مستوى تشكل النص أو الأداء أو التفاعلات الخطابية. ولذا فإنه يقع على عاتق الباحث الاختيار من بين هذه الموضوعات وفق قدرتها على الإفصاح والإبانة عن أسئلة البحث؛ التي يضعها الباحث - طوال الوقت- نصب عينيه.

رابعًا: أن كل حدث خطابي هو حدث فريد في ذاته، يتطلب خصوصية في المعالجة والتحليل. وبناءً على ذلك، فإنه لا توجد أطر تحليل قابلة للتطبيق على مجال واسع من النصوص دون تغيير. بل على العكس من ذلك، فإن كل تلفظ يتطلب خصوصية في المعالجة تتوازى مع خصوصيته في التكوين. ومن ثمَّ، فإن أي إطار تحليلي سوف يكون ناقصًا وقاصرًا، مهما بلغ اتساعه وتعقده.

الهوامش:

1 – لعرض مستفيض، وتبصرات نافذة حول الكتابات العربية عن مؤلف أرسطو حول الخطابة، يمكن الرجوع إلى: أرحيلة، عباس. الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة إلى حدود القرن الثامن الهجرى، نشر جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999.

2 – انظر، الجاحظ، عمرو بن بحر. (ت 255 هـ). البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2003، ج1، ص 12.

3 – المرجع نفسه، ج1، ص 58–59.

4 – نفسه، ج1 ص 62.

5 – نفسه، ج 1، ص 12.

6 – نفسه، ج1 ص 113.

7 – نفسه، ج 1، ص 120–127.

8 – نفسه، ج1، ص 101–102.

9 – نفسه، ج 1، ص 103–105.

10 – نفسه، (ج1، ص 108).

11 – نفسه، ج1 ص 13.

12 – نفسه، ج1 ص 191.

13 – نفسه، ج1 ص 117–120.

14 – نفسه، ج1 ص 116.

15 – نفسه، ج1، ص 83.

16 – نفسه، ج1، ص 44.

17 – نفسه، ج1 ص 44.

18 – نفسه، ج2 ص 8–9.

19 – نفسه، ج 1، ص 24، و ج1 ص 204.

20 – نفسه، ج1، ص 92.

21 – نفسه، ج1، ص 44.

22 – نفسه، ج1، ص 41.

23 – نفسه، ج1، ص 44.

24 – نفسه، ج1 ص 133.

25 – نفسه، ج1، ص 176.

26 – نفسه، ج1 ص 104.

27 – نفسه، ج1 ص 138.

28 – نفسه، ج1 ص 370.

29 – نفسه، ج2 ص 269.

30 – نفسه، ج3 ص6–7.

31 – نفسه، ج1، ص 100.

32 – نفسه، ج 1 ص 104.

33 – نفسه، ج1 ص 116.

34 – نفسه، ج1 ص 136، وص ص 138–139.

35 – نفسه، ج 1 ص 395.

36 – نفسه، ج3 ص 10.

37 – نفسه، ج2 ص 268.

38 – نفسه، ج3 ص 12–13.

39 – نفسه، ج3 ص 28–29.

40 – انظر، أرسطو. *كتاب الخطابة*. ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، (1986).

وعبد اللطيف، عماد. (2008). موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة *جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، مجلة علمية محكَّمة، مجلد 5، عدد 3 (2008)، ص 227–244.

41 – انظر: روث فوداك، وجريج ماير. (2012). مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة عزة شبل وحسام فرج، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، مصر، ص 22–48. وكذلك: van Dijk, T. (Ed.). (2007). *Discourse Studies*. London: Sage, pp xiii-xxxvii.

42 – فعلى سبيل المثال، يتضمن كتاب "مناهج تحليل الخطاب النقدي Methods of Critical Discourse Analysis" الذي يقدم مدخلا نظريًا وتطبيقيًا لبعض المقاربات التي تعمل في إطار ما يُعرف بالتحليل النقدي للخطاب ثماني مقاربات، ويتبنى مؤلفو كل مقاربة مفهومًا خاصًا للخطاب، وهو ما يعني أن كتابًا واحدًا يستعرض حالة توجه واحد من توجهات تحليل الخطاب في لحظة تاريخية مشتركة، يتضمن ثمانية مفاهيم متباينة لما يعنيه مصطلح "خطاب".

43 – لمزيد من الأفكار حول الاعتبارات التي يجب على دارسي الخطاب العرب أخذها في الحسبان أثناء إفادتهم من الدراسات الغربية في تحليل الخطاب يمكن الرجوع إلى مقدمة عماد عبد اللطيف للترجمة العربية لكتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب".

44 – انظر، Fairclough, N. (1992). *Discourse and Social Change*. UK; Cambridge, MA: Polity Press، ص 71، و: Blommaert, J. and C. Bulcaen. (2000). "Critical Discourse Analysis". *Annual Review of Anthropology* 29, 447-66، ص 448–449.

45 – انظر على سبيل المثال: فان دايك، توين. (2007). الدراسات النقدية للخطاب: مقاربة معرفية– اجتماعية. ضمن كتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب"، مرجع سابق، ص 150–189.

46 – يذكر الطبري أن سعد بن عبادة لما رأى الأنصار يتفرقون عنه تحت تأثير خطب أبي بكر وعمر قال: "أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني – أي يا عُمر– في أقطارها وسككها زئيرًا يجحرك وأصحابك". انظر، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (ت 310 هـ). تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك). نشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ج2، ص 244.

47 – يقول الطبري: "حدثني أبو بكر بن محمد الخزاعي أن أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر." انظر: تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج2، ص 244.

48 – انظر، Goffman, Erving. 1981. Forms of Talk. Philadelphia: University of Pennsylvania Press. pp 144– 45.

49 – جوفمان، مرجع سابق، ص 144.

50 – نفسه، نفس الصفحة.

51 – انظر، دون، ميشال. (2011). ***الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر***". ترجمة عماد عبد اللطيف، نشر المركز القومي للترجمة، مصر. ص 38–40.

52 – تتعدد اقتراحات تصنيف الجمهور، ويمكن الرجوع إلى تصنيف تطبيقي في بحث طلال وهبة. (2010). قرائن المخاطبة والاقتباس في خطاب الوسيط الديني المعاصر. مجلة فصول عدد 77، 2010، ص 2011–234. وقد أحدثت وسائط الاتصال المعاصرة تعقيدًا شديدًا في أنواع الجمهور الذي يتلقى الخطاب، إضافة إلى التعقيد الأولي الناتج عن تباين التصور الذي يؤسسه المتكلم لمخاطَبه إما على المستوى المثالي أو النصي أو الفعلي، عن واقع التلقي ذاته، وبسبب إعادة إنتاج الخطابات في سياقات جديدة لمتلقين جدد عبر وسائط متنوعة.

53 – انظر، جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ج1، ص 175.

54 – نفسه، ج1، ص 173–177.

55 – نفسه، ج1، ص 177.

56 – نفسه، ج1، ص 176.

57 – لاستعراض واسع لأهم ظواهر تحليل المحادثة يمكن الرجوع إلى: Sidnell, Jack and Tanya Stivers (2012) (eds.). Handbook of Conversation Analysis. Boston: Wiley-Blackwell.

58 – انظر الرواية الأساسية التي أوردها الجاحظ لحادث السقيفة في كتاب البيان والتبيين، ج3، ص 296-298. والرواية التي قدمها أحمد زكي صفوت، في جمهرة خطب العرب، ج 1، ص 173-178.

59 – يُمكن النظر إلى الملاسنة الكلامية بين عمر والحباب على أنها كانت بداية نشوب هذه الحرب الكلامية، خاصة حين تغيرت إستراتيجية الكلام لدى كليهما من مخاطَبة الأنصار إلى المواجهة المباشرة بين شخصيهما، وهي المواجهة التي وصلت إلى حد التهديد الرمزي بالقتل؛ حين قال عُمر للحباب "إذن يقتلك الله"، فرد عليه الحباب "بل إياك يقتل". (انظر، جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ج1، ص 177). وهناك رواية أخرى للأحداث يتراجع فيها دور الكلمة لصالح السيف، حيث يذكر الطبري أنه "لما قام الحباب ابن المنذر انتضى سيفه، وقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل في عريسة الأسد. فحامله عمر فضرب يده! فندر السيف فأخذه ثم وثب على سعد ووثبوا على سعد، وتتابع القوم على البيعة وبايع سعد، وكانت فلتة كفلتات الجاهلية قام أبو بكر دونها". (انظر، الطبري، مرجع سابق، ج2، ص 244). وخلاصة هذه الرواية أن سلطة السيف هي التي حسمت النزاع على السلطة، وأن بيعة الأنصار كانت تحت تهديد القتل. وهي رواية تقوض كليَّة النتائج التي تترتب على الرواية الأكثر شيوعًا لحدث السقيفة، التي تصورها بوصفها لحظة تاريخية، مورس فيها شكل بالغ التحضر من التفاوض على السلطة بين فاعلين سياسيين أحرار، استنادًا إلى منطلقات عقلية.

60 – انظر، يونان، كلود. (2009). طرق التضليل السياسي، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ص 56-62.

61 – انظر جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ج1، ص 175.

62 – لدراسة موسعة حول وظائف التنوع الأسلوبي في الخطاب السياسي يمكن الرجوع إلى: Mazraani, N. (1997). *Aspects of Language Variation in Arabic Political Speech-making.* Richmond, Surrey: Curzon Press.

63 – من بين هذه الاستثناءات خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي إثر توليه السلطة في العراق، انظر: الجاحظ، كتاب البيان والتبيين، مرجع سابق، ج2، ص 307-308.

64 – انظر، جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ج1، ص 174.

65 – نفسه، ج 1، ص 174-177.

66 – انظر، جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ج1، ص 174.

67 – للتمييز بين التناص والتضفير الخطابي وإعادة بناء السياق يمكن الرجوع إلى: Abdul-Latif, Emad. Interdiscursivity between political and religious discourses in a speech by Sadat: Combining CDA and addressee rhetoric. *Journal of Language and Politics* 10:1 (2011), 50–67. Amsterdam: John Benjamin's.

68 – لعرض مستفيض لمفاهيم تعدد الأصوات والحوارية المباشرة والمستترة والانتقاد المباشر والمستتر، يمكن الرجوع إلى: Bakhtin, Mikhail. (1984). *Problems of Dostoevsky's Poetics*. Edited and translated by Caryl Emerson. Minneapolis: University of Minnesota Press.

69 – لعرض مستفيض لأنواع المقاصد في الخطاب، يمكن الرجوع إلى: الشهري، عبد الهادي. (2004). استراتيجيات الخطاب. دار الكتاب الجديد، بيروت.

70 – وفقًا لإحدى الروايات فإن المقاطعة والتشويش أثناء خطب السقيفة كانت شديدة، ويصف عُمر بن الخطاب الموقف بقوله: "فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فلما أشفقتُ الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسط يدك أبايعك". نقلا عن تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج 2، ص 234.

71 – انظر، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج2، ص 243.

72 – انظر، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص 298.

73 – انظر، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج2، ص 243.

74 – انظر، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص 298.

الفهرس